12 - السيدة حوَّاء بنت يزيد الأنصارية

نسبها وإسلامها

اسمها حوَّاء، والدها يزيد بن السكن، والدتها عقرب بنت معاذ، أما خالها فهو سعد بن معاذ سيد الأوس، وزوجها الشاعر الجاهلي قيس بن الخطيم أحد غواة الشعر الجاهلي الذين وصفهم الله تعالى في كتابه الكريم بقوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ [الشعراء: 224 – 225].

لقد أنفق قيس عمره في العبث، وقضى حياته بين اللهو والمجون، وآثر الضلالة على الهدى، والغيَّ على الرشاد، فكان من الغاوين.

بيد أن امرأته حوَّاء خالفته في سلوكه لِمَا أراد الله بها من الخير، فقد هداها الله إلى الإسلام في وقتٍ مبكرٍ، فأسلمت، وكتمت إسلامها عن زوجها حتى تجتنب إساءته إليها، وإلى الدين الذي ارتضته.

وكان حالها مع زوجها قيس أشبه بحال آسية مع زوجها فرعون، قال الله تعالى في قصة آسية: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: 11].

وكانت تودُّ لو أن الله يهدي زوجها قيساً إلى الإيمان، لتكون قريبة منه في عواطفها ومشاعرها فتشاركه أفراحه وأتراحه، وتواسيه في متاعبه وآلامه، لكنها آثرت إيمانها على كل شيء، حتى على الحياة نفسها، ووطَّنت نفسها على ذلك، فكان الموت على الإيمان والإسلام أحب إليها من العيش مع الشرك والأصنام.

وكانت إذا قرأت الآيات التي نزلت في الشعراء تتمنى لو أن زوجها كان من الفئة التي استثناها الله تعالى بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: 227].

فالشعراء - كما صنَّفهم القرآن - صنفان: صنفٌ مذموم يبغضه الله ورسوله ﷺ، وهؤلاء شعراء الضلال الذين لا يتورَّعون عن ارتكاب المحرَّمات، وركوب الموبقات، ويستبقون إلى المنكرات، ويتهافتون على الرذائل، وينأون بأنفسهم عن الفضائل، وقانا الله منهم، وأبعدنا عنهم! آمين؛ وصنف ثانٍ محمودٌ يحبه الله ورسوله ﷺ، وقد عرَّفه الله تعالى بأنهم المؤمنون الذين آمنوا بالله ربّاً وبمحمد ﷺ نبيّاً، وبالقرآن إماماً، والتزموا بأوامر الإسلام، وانتهوا عن مناهيه، وكذلك الذين يعملون الصالحات، ويعرضون عن السيئات، والذين يكثرون من ذكر الله في أقوالهم وأفعالهم وسائر تصرفاتهم وأحوالهم، والذين لا يسكتون على ظلم مَنْ ناصب العداء لله ولرسوله ﷺ والمؤمنين، فيقفون أشعارهم لخدمة الإسلام، والترغيب فيه والمنافحة عنه وعمَّن دخلوا فيه واتَّبعوه.

وكانت حوَّاء تتساءل: لِمَ لا ينتهج قيس بنهج شاعريْ النبي ﷺ حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، اللذين أحبَّهما رسول الله ﷺ وقرَّبهما، لحملهما لواء الدفاع عن الإسلام ضد القوم الكافرين.

وتأسف حوَّاء لأن قيساً زوجها نأى بشعره عن الخير، وقصره على كل شر، ولم يكن له في الدفاع عن الإسلام نصيب.

ولكن، أليس كل ما يجري هذا الكون موافقاً لمشيئة الله تعالى الماضية في خلقه حتى يرث الله الأرض ومن عليها؟ فلتصبر حوَّاء إذاً حتى تنال أجر الصابرين المصابرين.

على خطى آسية زوج فرعون

واستمرَّت حوَّاء في أداء واجباتها الدينية سرّاً، وفي غفلة من زوجها،

ولكن إلى متى يستمرُّ ذلك؟ وهل تستطيع كتمان إسلامها إلى أمدٍ بعيدٍ؟ إن هذا لأمرٌ مستحيلٌ، لأن الرجل يدخل بيته متى شاء، وفي أي وقت يشاء، ولا بُدَّ من ساعةٍ يفجؤها فيها ويراها وهي تصلي، أو يدعوها لتأكل معه وهي صائمة، فما الذي تفعله آنئذٍ؟.

ولم يطل الأمر فعلاً حتى رآها واقفة تصلي، ثم تقرأ من بعض الجلود وسعف النخيل كلاماً غريباً عن أذنه وعقله، وتساءل: أترى هذه المرأة قد أسلمت دون علمي؟ والويل لها إن كانت قد فعلت ذلك فعلاً قبل أن آذن لها!!.

وكأني بهذا الفرعون القزم يسير على خطوات فرعون الكبير الذي قال للسحرة الذين آمنوا برب هارون وموسى عليهما السلام، وأقرُّوا بوحدانيته: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه: 71].

من تظن نفسك أيها الشويعر المغرور؟ ومن أنت أيها الفرعون المتسلِّط؟ حتى يؤخذ رأيكما؟ ومتى كان الإيمان بالله، والإقرار بوحدانيته يحتاج إلى إذنٍ زائغٍ، وموافقةِ ضِلِّيلٍ؟ ومتى كان الاعتراف بالحق بحاجة إلى موافقتكما؟ تبّاً لكما! ما أشد حمقكما! وما أبلغ سخفكما إذ جهلتما أن الله خالق كل شيء!! وأن كل شيء فانٍ، ويبقى وجهه الكريم!.

ولم ينتظر قيس حتى تتم صلاتها ليسألها عن شأنها الذي وجدها عليه، بل عمد إليها وهي ساجدة خاشعة بين يدي ربها، وحسر ثيابها من الأسفل ورفعها حتى جعلها فوق رأسها، وبعد أن انتهى من فعلته الشائنة راح يهزأ من منظرها بعد الذي فعله بها.

فلما كان الغد ابتدع هذا الفاسق الكافر شيئاً آخر أوحى به إليه ضلاله، فبينما هي ساجدة أتاها من خلفها، ثم رفع رجليها، ولما أصبحتا إلى الأعلى ورأسها فوق الأرض قَلَبَها إلى الناحية الثانية ثم أفلتها.

ولم تستطع تلك المؤمنة الصابرة أن تصنع شيئاً غير البكاء وطلب العون من الله على هذا الزوج الكافر، حتى يجعل لها مخرجاً، وفرجاً قريباً من العذاب الذي يلقاها به، ولم يكن لها عن الاعتصام بالصبر محيد، والتمست من ربها التأييد، على هذا الفاجر العتيد.

وتكرَّر تعذيب زوج حوَّاء لها، وتمادى في جرأته عليها، وإساءته إليها، ولم يكفَّ عن ذلك، لأنه لا ديناً يردعه، ولا خُلُقاً يمنعه، ومن حُرِمَ الخُلُق والدين، فهو بإتيان المنكرات قمين[1].

ولكن، حتَّام يستمر قيس في قسوته، وإلى متى يتمادى في سوء معاملته؟ لقد علمت نساء الأنصار بما تتعرَّض له حوَّاء على يد زوجها من القسوة والإيذاء، وباتت سيرتهما على كل لسان، وانتقل خبرها من بيتٍ إلى بيتٍ حتى عمَّ المدينة، ثم تجاوزها حتى وصل إلى رسول الله ﷺ في مكة، وكان النبي ﷺ يتابع وهو في مكة أخبار أنصاره في المدينة، فقد زاره نفرٌ منهم وأخبروه بمحنة حوَّاء مع زوجها، والأذى الذي تعاني منه.

إن بعد العسر يسراً

وفي أحد المواسم خرج قيس بن الخطيم إلى مكة مع وفدٍ من أهل المدينة لإقامة تحالفٍ مع زعماء قريش، وكان رسول الله ﷺ يتعرَّض في المواسم إلى القبائل القادمة إلى مكة ليدعوها إلى الدخول في الإسلام، ويعرِّفها بمبادئ هذا الدين الحنيف، وكان الوفد الذي يضمُّ قيس بن الخطيم أحد الوفود التي التقت برسول الله ﷺ وكان ذلك في ذي المجاز وهو من أسواق مكة الشهيرة، ولما عرض رسول الله ﷺ على قيس الإسلام قال له: ما أحسن ما تدعو إليه ! غير أني أريد أن تمهلني حتى أعود إلى المدينة، وأنظر في الأمر الذي حدَّثتني عنه، لأنني الآن في شغلٍ عنه بالحرب التي تكاد لا تنطفئ بين الأوس والخزرج، وكان رسول الله ﷺ يحرص على أن

(1) قمين: جدير.

يدخله في الإسلام لذلك أطال حواره معه، وألحَّ عليه، لكن قيساً ظلَّ ثابتاً على موقفه، وصمَّم على إمهاله إلى وقت لاحق، عند ذلك قال له رسول الله ﷺ: **«يا أَبَا يَزِيْدَ، إِنَّ صَاحِبَتَكَ حَوَّاءَ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُسِيءُ صُحْبَتَهَا مُذْ فَارَقَتْ دِينَكَ، فَاتَّقِ اللهَ، وَاحْفَظْنِي فِيهَا، وَلا تَعَرَّضْ لَهَا»**، فردَّ قيس بكرم الجاهلي الأصيل وطبعه الصريح الصافي البعيد عن الكذب والرياء: نعم، وكرامة، أفعلُ ما أحببتَ، ولا أعرض لها بعد اليوم إلا بخير.

ولما عاد قيس إلى المدينة دخل على امرأته حوَّاء وقال لها: تعلمين يا حوَّاء؟ لقد التقيت في مكة بمحمد، وأثناء حديثي معه أوصاني بك خيراً، فوعدته ألاَّ أمسَّك بسوءٍ بعد اليوم، وأنا والله موفٍ له بما وعدته! وسرَّت حوَّاء كثيراً بما سمعته منه، وخرجت بإسلامها من السرِّ إلى العلانية دون أن تجد من زوجها أي اعتراضٍ أو أذى.

وبعد مضي بعض الوقت سأل رسول الله ﷺ بعض أهل المدينة عن حوَّاء فأُخبر أنها بخير، وعلم رسول الله ﷺ أن قيساً قد صَدَقَه بما وعده وتركها وشأنها، فلما سمع رسول الله ﷺ ذلك قال: **«وَفَّى الأُدَيْعِجُ!»**.

ولما انتشر أمر إسلام حوَّاء قيل لزوجها: يا أبا يزيد، إن حوَّاء امرأتك، وقد تركت دينك وتبعت محمداً، فيقول: إني قد أعطيته عهداً ألاَّ أسوءها، وأن أحفظه فيها، ولست بمُخفِرٍ فيما أعطيت! وهكذا فرَّج الله كَرْبَ حوَّاء وكشف غُمَّتَها، ومنحها الأمان.

وأما قيس فقد أضاع الفرصة التي واتته ليدخل في الإسلام، وقُتل في المدينة مشركاً ليدخل النار مع الداخلين.

راوية الحديث الشريف

ثم جاءت بيعة العقبة الثانية حيث اختار الأنصار نقباءهم الاثني عشر، وكانوا ثلاثةً من الأوس وتسعةً من الخزرج، وبعد أن بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، وعاهدوه على نصرته إذا قدِم عليهم مهاجراً إليهم، ودَّعوه على أمل اللقاء به بين ظهرانيهم وعلى أرض مدينتهم.

ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى علم أهل المدينة أن النبي ﷺ قد أصبح بظاهر المدينة، فخلت الديار من أهلها، وخرج الرجال والنساء والأطفال لاستقبال ضيفهم الكبير، والترحيب به أجمل ترحيب.

ولم تكن حوَّاء لتتخلَّف عن هذا المهرجان العظيم، بعد أن شاركت حوَّاء نساء المدينة في بيعة رسول الله ﷺ تفرَّغت لشؤون بيتها، وتربية ولدها ثابت بن قيس على مبادئ الدين الحنيف.

وأخذت حوَّاء تحضر مع نساء الأنصار مجالس رسول الله ﷺ وتتلقَّى الحديث النبوي من فمه الشريف حتى بلغت باجتهادها مرتبة الرواية عنه، كما باتت ممن يُروى عنهنَّ، وكان عمرو بن معاذ رضي الله عنه يروي عنها.

لقد أراد الله بك الخير يا حوَّاء فهداكِ، ولنشر دينه أبقاك، وأبعد عن طريقك زوجك الذي آذاك، ولو سمع، أو عقل، قيس لاتَّبع خطاك.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٦ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١١﴾ [الملك: 6 - 11].

لقد اخترتِ التقوى طريقاً لحياتك، فهنيئاً لك اختيارك وتقاك، قال تعالى في أمثالك: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾ [القمر: 54 - 55]، فهل علمتِ بأي جزاء سيلقاكِ؟!!.

لقد أرضيته يا حوَّاء في دنياك، ولا ريب أنه سيرضيك في أُخراك، وظلَّت حوَّاء وفية لربها ودينها حتى حضرتها الوفاة، رحمها الله تعالى، ورضي عنها.